عامل النوّارة

قصة للكاتب التركي
سعيد فايق

كانت البروق البعيدة قد بدأت بالاقتراب، عندما غادر مركبُ الثامنة وخمس وأربعين دقيقة المرفأ. وما لبث شاطىء الأناضول أن غاب عن العيون. كان المطر الغزير، الضارب إلى البياض، يخطّط أمام النوّارة، بعض الاشكال الهندسية المسطّحة. والرجل، على المقعد تحت المطر، والذي كان بالتأكيد، يفكّر في البيوت البعيدة ذات الأضواء الخافتة، قفز من مكانه هكذا كما لو أن المرفأ الذي يجب أن ينزل فيه قد فاته. اقترب الرجل من عامل النوارة الذي كان محنيّ الظهر قليلاً ومرتدياً مشمعاً بالياً بأكمام فارغة مسدلة. التفت عامل النوّارة ونظر إلى المقترب منه، ثم أدار وجهه من جديد صوب نور النوّارة حيث لم يكن يُرى شيءٌ خلا بعض الخطوط المتوازية المستقيمة والمتقطعة، وقال، بعبارة يظهر منها أنه رجلٌ مسلٍّ ومحبّ للكلام:

- مطرٌ رهيب!

- أنا لا أرى شيئاً في الجوار، وأنت؟ سأل الآخر.

- يوجد ضباب. وأيضاً فإن المطر قوي. لا شيء يُرى.

- أهناك مسافة طويلة حتى «قينالى»؟.

- لا بد أن تكون قريبة. ولكن لا أرى شيئاً، لا أستطيع أن أرى...

أدار العامل النوّارة إلى اليسار وإلى اليمين، لم يستطع أن يميّز شيئاً، خلا الضباب الذي كان يتكاثف ويتقدّم إلى الأمام. وكان الرجل الذي بجانبه، يلاحظ الأشكال الهندسية من وقت لآخر، ويميّز النهايات البيض للأمواج في البحر الهائج.

- آ... لن يستمرّ كثيراً، ولكن... قال عامل النوّارة.

- وكيف سيرسو في المرفأ في جوٍّ كهذا؟

- المركب؟ سيرسو. الكابتن ذو خبرة. بعد قليلٍ وسوف نرى الأضواء.

- أبإمكاننا رؤيتها إذا استمرّ الجوّ على هذه الحال؟

- سوف نراها من على بعد عشرين، خمسة وعشرين متراً.

- أها. يعني سوف نراها. إذن ليطمئن بالي.

- كن مطمئناً! لا داعي للخوف. فقط أنا أقلق من البروق. ليحرسنا الله!..

- ألا يوجد للمركب حربة للصواعق؟.

- ماذا؟.

- ذاك الذي يجذب الصواعق.

- أمَانعٌ للصواعق؟ هذه المراكب ليس لها مثل هذه الأمور. فقط المراكب السياحية الكبيرة، وليس كلّها.

فجأة، خفّ المطر.

- غيمةٌ ومرت، قال عامل النوّارة.

كانت «قينالي» ترقد كحشرة باهتة ضخمة، على بعد ميل أمامنا. والرجل، إلى جانب عامل النوّارة، بحث ولم يجد جواباً على سؤال لماذا الجزيرة الليلية «قينالي» تبدو، بالنسبة له، مثل حشرة. كان باستطاعته تشبيهها بسمكة أو تنين أو تمساح، لأنها هي أيضاً تعيش في المياه. ولكن، من يدري لماذا، في هذه اللحظة، كانت قينالي تبدو له مثل حشرة باهتة باردة.

أخرج الرجل علبة سجائر. أشعل واحدة وأعطاها لعامل النوّارة.

وأخذا يتحادثان بصورة أكثر ودية.

- الكابتن مسلم متديّن كثيراً. ببساطة إنه متعصب. غير أني كنتُ قد وجّهتُ النوّارة نحو نافذة البيت المقابل. ليتك تعرف أي صُورٍ ممتعة هناك! إذ نقارب هذه الغابة، في القبالة، لن تتصوّر كم من الثياب الداخلية، معرَّاة، سوف نرى إذا ما وجّهتُ النوّارة إلى أعماقها.

ابتسم الرجل ثم انتصب واقفاً وفي فمه سيجارة.

كان عامل النوّارة يدير رأسه من وقت لآخر ليرى وقع كلماته. أما الرجل فإنه الآن يتأمل بشكل أوضح وجه عامل النوّارة. كان له شاربان مرتخيان قصيران، مقصوصان من أسفل بحيث لم يبق منهما سوى ما تحت الأنف. وكان يتكلم بلكنة أناضولية ركيكة.

- من أنت؟

- نقول إننا من «أزميت». لكني وُلدتُ هنا في «يني محلة».

- في البوسفور؟

- نعم، وأنتم من أين؟

- أنا؟ أنا... أنا... أنا من جزيرة «بورغاس». وفي الحقيقة أعيش هناك.

- لِتَأتِ، في إحدى العشيات، إلى المركب في الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة. وإذا صدف وجود كابتن آخر، فسوف أُريك مثل تلك المشاهد بين صنوبرات جزيرتكم، بحيث ستمضغ لسانك. إيه.. تلك اليونانيات الشابات! ولكن، إذا أردت أن تعرف، فإن جزيرتكم جنّة بأكملها! من يدري ما إذا لم تكن نوّارتي قد طالتك أنت أيضاً؟ ماذا ستقول، ها؟

وضحك الأثنان.

- المركب ينعطف - قال بصورة غير منتظرة - وإذ نقترب من المرفأ بمقدار مسافة ثلاثة مراكب فإن الكابتن سوف يوقف المحرّكات.

- حسناً. وكيف سيتحرك المركّب؟

- بقوة اندفاعه سوف يصل، بهذه القوة لن يصل إلى المرفأ فقط بل وإلى منتصف الطريق إلى جزيرة بورغاس. ولكن ماذا تعتقد؟

استمرّ المطر بالرذّ. ولكن الضباب السابق كان قد انقشع. والجزر البعيدة «هايلي» و «بويوقادا» لم تكن تبدو كحشرات. كانت ضخمة، وبأضوائها الكثيرة كانت أشبه بعوالم سحرية فاتنة. لتنزلْ هناك... وفي شوارعها المكتظة، لتفتشْ عن أحد ما... الذي يقع تحت يدك.

كانا قد غادرا «قينالي». صمتاً. ووقتاً طويلاً لم يتحادثا. كان عامل النوّارة يوجّه النور في اجاهات البحر المختلفة، كما لو كان يبحث عن شيء. أما الرجل، إلى جانبه، فلم يكن يفكّر في أي شيء.

فجأة ضحك عامل النوّارة وهزّ برأسه.

فهم الرجل أنه يجب الاستفهام عن سبب الضحك.

- لماذا تضحك؟ - سأل، ضاحكاً ببلادة.

- فطنتُ إلى شيء.

ثم ضحك عامل النوّارة من جديد واستغرق في تفكير متواصل، وقد تغيّر، بالنسبة للرجل الذي بجانبه.

- تذكّرتُ صغيري؛ أجاب.

- يعني أنك متزوج.

- طبعاً. عندي ولدان. والكبير عمره ١٥ سنة.

التفت الرجل وتأمل مندهشاً وجه عامل النوّارة. كان يبدو، على الأكثر، في الخامسة والعشرين من العمر.

أدار العامل وجهه من جديد صوب النوّارة وبدأ بالحديث كرجل سعيد وفرحان:

- سنواتي تسع وثلاثون. وابني في عامه الخامس عشر. ولكن أتعرف لماذا أضحك، يا أخي؟. في ذلك اليوم كنتُ في عطلة، عدتُ إلى البيت. و «حسن» كان على شفا الاغفاء. هو يراني مرة واحدة في الأسبوع. إلاّ أنه يحبني كثيراً. كان يقول لأمه: «أيقظي حالاً، حين يأتي أبي». ذهبتُ أنا وأيقظته. وحالاً جلس في السرير وقال: «أبي، احكِ لي!» - «ماذا؟» سألته. «عن تلك المرأة التي ضربت زوجها» وبدأتُ أحكي: «وجّهتُ نوّارتي، وإذ تأملتُ، فماذا رأيت! المرأة أنزلتْ بنطال الرجل وبدأت تضربه بالبابوج على قفاه. هل تضرب... تضرب...» وإلى حين حكيتُ له، كان حسن، من جديد، قد نام كما كان قد جلس. طبعاً أنا لا أحكي له هكذا بسرعة. بل أجمّل حكايتي. كيف افترقنا عند المرفأ. ماذا قال البحّار الذي يعقد الحبال. كيف كان الطقس. كيف كاد الكابتن أن يتوه لو لم يكن يوجد نوّارة. وهكذا.. الخ. هذا ما تذكّرته ودفعني للضحك. تعجّبتُ أي حكاية أفكرّ له هذا الأسبوع. إلا أنه ذكي.. يا لشقاوته! معلّموه كانوا شديدي الاعجاب به. ودائماً كانوا يقولون لي يجب أن أعلّمه. لكننا نحن فقراء، وكيف أعلّمه يا سيدي؟ وإذا قرّر واحد أن يتعلّم، فمن سيشتغل حرفيًّا، أليس كذلك؟ يكفيه إلى هذا الحدّ. أنهى المدرسة التأسيسية ثم وضعناه عند أحدّ النجّارين ليقبض أربع ليرات أسبوعياً. أقليلٌ هذا المبلغ؟ ولكن الكتاب لا يفارق يده، ما زال يقرأ، وهو، مثلي أنا، يحبّ قراءة الجرائد القديمة.

بدأ عامل النوّارة يُبرقش الجوارَ بالنور وهو ما زال مستغرقاً في التفكير، كما لو أنه يبحث عن موضوع لحكاية جديدة. الرجل الواقف إلى جانبه بدأ، أيضاً، يفكّر في حكاية لولد عامل النوّارة.

فكّر في حكايات كثيرة ولكن لم تعجبه. وذات لحظة، التفت نحو عامل النوّارة وتأمله. كان يشبه ديوجين المنحني، بمصباح في اليد، باحثاً عن إنسان في شوارع أثينا.

- ها قد وصلنا جزيرتكم.

- وداعاً يا رجل. في طريق السلامة!

- بالعافية يا سيدي.

في العشية التالية، كان المركب الذي يغادر في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة، ينطلق من جديد. كان يتملكه الصمت والهدوء والحنان، و... قليل من الحزن وأمانٍ من أولئك الذين لم يستطيعوا البقاء تحت السماء المكشوفة والمرشوشة بالنجوم في الليل المعتم.

رجل البارحة عشية، من جديد، قفز من المقعد، كما لو أنهم كانوا قد أفلتوا المركب من المرفأ الذي كان يجب أن ينزل فيه.

حضن رزمةً كان قد وضعها إلى جانبه ومضى بخطى سريعة نحو المقدمة. كانت قد مرّت عشر دقائق على مغادرة المركب «قينالي» وكانت النوّارة تبحث عن شيء في أعلى المستشفى.

- مرحباً، يا رجل! قال وهو يتابع الخطو.

- أو.. و.. و.. مرحباً يا سيدي، لقد تفضّلتم، هذه العشية، بالمجيء متأخرين جداً عندنا.

- عفوك، عفوك. أراك في مزاج طيب.

- غداً عندي عطلة... لهذا السبب.

- أحقاً؟ والحكاية لحسن هل هي جاهزة؟

- أيضاً لا. سوف أفكّر. أمر سهل.

- يا رجل، أنا أحمل لك شيئاً صغيراً لحسن. كتّيب - كتّيبان. أعْطِها للولد.

- أو.. و.. و.. لماذا تعذّبتَ يا سيدي؟ لم يكن ضرورياً. ببساطة ليس مناسباً بالنسبة لي.

- كُن مطمئناً. شيء بسيط. منذ البارحة وأنا أجهد في التفكير بحكاية لحسن. فكّرتُ ساعات. وهذا الصباح، على المركب، فكّرتُ أيضاً. أنت ماذا تعتقد؟ هذه المرة احكِ له عني، ها! في إحدى العشيات الماطرة جاءني رجل و... هكذا.. الخ..

- البقية اتركها عليّ!

ترجمة: محمد نور الدين

★ سعيد فايق آبا سيانق، هو أحد أكثر القصاصين غنائية في الأدب التركي. رفع القصة إلى مستوى فني عال. ولد عام ١٩٠٦ في آضابازاري. ومات عام ١٩٥٤. أُرسل للتخصص في العلوم الاقتصادية في سويسرا. ولكنه، على الطريق، رفض ذلك وعاش ثلاث سنوات في فرنسا حيث تعرّف على الأدب الفرنسي والحياة الثقافية في باريس. جُمعت أقاصيصه في ١٣ مجموعة من أشهرها: «غيوم في الفضاء»، «رجل عديم الفائدة»، «مقهى الحارة» «السمارة». وإضافة لذلك كتب روايتين ومجموعة شعرية.